... عن السنّة وطرابلس: القلعة والعاصمة والعيش الواحد

د. عبد الغني عماد

هل تحول السنّة في لبنان إلى طائفة كما غيرهم من طوائف هذا "**البيت ذي المنازل الكثيرة**" كما يصف هذا الوطن المؤرخ اللبناني كمال الصليبي؟ علماً إنهم لم يتصرفوا يوماً على هـذا النحو طوال تاريخهم في لبنان، فقد كانوا دوماً "أهل الجماعة"، أي لم يعتبروا أنفـسهم أقليـة ضمن الأقليات في هذا الكيان، فقد كانوا الشريحة التي تمثل "الأمة" الحاملة لشعور الأكثريـة تاريخياً واللاعبة لدور "الجماعة المركزية" في الدفاع عن الأمة والهوية، لذلك كانوا دائماً أكثر تحرراً من هواجس الشعور الأقلوي وما ينتج عنه من قلق وخوف وريبة تجاه الآخـر. لقـد كانت ساحتهم متحررة طيلة تاريخها من "فوبيا الأقليات" التي تفتقر إلى شعور الأمان الجمعي وينتابها رهاب الذوبان والإندماج وقلق الهوية.

ثمة حقيقة أخرى تميز الجماعة السنّية في لبنان في بنيتها التاريخية والثقافية، فهـم سـكان ثغور ومدن في الغالب الأعم، ولا يخفى ما لسكان الثغور في العالم الإسلامي من دور وفضل وأجر وتزكية، وهذا ما يجعل سنة لبنان ينظرون إلى مسؤوليتهم التاريخية بإعتبارها تتجـاوز الجانب الجهادي ببعده المادي لتطاول حراسة العقيدة والدعوة لها. الا ان الوجه الآخر للصورة يتجلى في أن سكنهم في المدن والسواحل جعلهم مع الأيام أكثر إنفتاحاً على "الآخـر" وأكثـر

مرونة في التعامل معه بحكم الإختلاط والتعارف والتفاعل مع عالم البحار ومـا وراءه ومـا يأتي عبره، من تجارة وروابط إقتصادية وخدماتية. الذهنية المدينية جعلـت عـروبتهم أكثـر عقلانية وواقعية، بل أكثر تكيفاً وإستيعاباً وحداثة، وجعلت إيمانهم أكثر تفتحاً وإسلامهم أكثـر تسامحاً وقبولاً للآخر. هذه الصورة المزدوجة، الجهادية والمدينية لا تعبر عن إنـشطار فـي الشخصية السنية اللبنانية، بقدر ما ترسم حقيقة الإشكالية وحدودها. وعلى خلفية هذه الـصورة المزدوجة ولكن المتكاملة يمكن تحليل المواقف والإتجاهات التي تعتبر بمثابة "محركات ذهنية" للشارع السني وخاصة للجماعات الإسلامية الناشطة في إطاره، بل حتى لجماعـات الإسـلام السياسي عموماً.

والواقع إن الذاكرة السنية الجماعية تحفظ بفخر قصة الإمام الأوزاعي الذي تصدى بشجاعة الفقيه المجاهد لوالي دمشق الذي بدأ بتهجير المسيحيين وتوزيعهم على بلاد الشام، بحجـة أن بعضهم خرج وتمرد على الحكم الإسلامي فيما عرف آنذاك بحركة "المنيطـرة" عـام ٧٥٩م، أرسل حينها الإمام الأوزاعي له تلك الرسالة الشهيرة دفاعاً عن المسيحيين والتـي أصـبحت مثالاً اخلاقياً يسترشد به المسلمون والمسيحيون في لبنان، وفيها فتوى ترفض، وموقف يـدين الظلم الذي يصيب "عامة" بسبب تصرفات قام بها "خاصة" وهو ما يخالف عدالـة الإسـلام. رسالة طويلة فيها من البلاغة الدينية والشجاعة الأدبية ما يجعلها بحق من الوثائق الحـضارية المرجعية في الاجتماع الإسلامي لهذه المنطقة عموماً ولسنة لبنان خصوصاً.

أما طرابلس التي يتحامل عليها بعض الحاقدين، فيقتطعون حادثة هنا أو يقتنصون واقعـة هناك متناسين تاريخها الطويل في العيش الواحد الذي تحول مسار تاريخي وقناعـة فكريـة وممارسة حياتية لدى أهلها. يكفي أن نذكر كيف ان قاضي طرابلس قد حكم في نزاع بين أحد المسيحيين ومفتي المدينة حول ملكية أراض تذرع المفتي بملكيتها استناداً إلى "فرمان شرعي

مطاع من الخليفة" سنة ١٧٢٨ لصالح الأول الذي أثبت ملكيته شرعاً. يكفي أن نـذكر كيـف أفتى مفتي طرابلس محمد كامل الزيني تلك الفتوى الشهيرة بعدم الجواز بالصلاة في الجـامع الأسعدي الذي دار حوله الخلاف في محلة التربيعة والذي بني في أحد أجزائه علـى أرضـه لعائلة مسيحية. وتحتفظ هذه العائلة بنسخة من هذه الفتوى حتى اليوم. يكفي أن نذكر إنه يـوم انفجر الاقتتال الطائفي في جبل لبنان عام ١٨٦٠ رفض علماء وفقهاء المدينة الإنجرار إلـى الفتنة، بل حاربوا ومنعوا، ما يعكر صفوة العلاقات بين المسلمين والمـسيحيين مـن أهلهـا، وأرسل في ذلك الحين كبير علماء المدينة الشيخ محمد رشيد الميقاتي أبناءه ليلاً لحراسة دور المسيحيين ومنع "ذوي الجهالة" من التعرض لها واقتدى به من اقتدى فيما بعد. تلـك الأيـام السوداء التي شهدت مجازر ١٨٤٠ و ١٨٦٠ والتي بقيت طرابلس بمنأى عنها رغم امتدادها إلى دمشق ومناطق أخرى خارج جبل لبنان بفضل هؤلاء الرجال وهذه الثقافة.

هذا التراث المتراكم من العيش المشترك وروح التسامح والتعاون وحـسن الجـوار كـان عاملاً رئيسياً في تحصين المدينة والشمال من امتداد النزاع الطائفي إليه في تلـك الـسنوات السوداء من تاريخ لبنان.

لهذه الأسباب وتأسيساً على ما سبق وفي سياق النقاش الذي دار إعلامياً حول هذا الأمر، تصبح طرابلس أبعد ما تكون عن العاصمة للبنانيين السنة إذا ما هي فرطت بدورها كعاصمة للعيش الواحد في الشمال ولبنان، وتصبح قلعة بلا معنى، محاصرة معزولـة مهمـشة (مـع التحفظ على تعبير القلعة في عصرنا الحاضر) إذ ما تخلت عن رسالتها وثقافتها في التـسامح والعيش الواحد. فهذه الثقافة ليست ثقافة عابرة في تاريخ مـدينتنا وليـست ثقافـة مـصطنعة فرضها حاكم أو استوردتها سلطة، إنها في الحقيقة نسيج صنعه الأجداد تبلور فـي علاقـات يومية، وفي ممارسات تاريخية، تراكمت فأصبحت نمط حياة وعيشاً واحداً مشتركاً في السراء

والضراء. هذا العيش الواحد لم يصنع فوق على مستوى السلطات، بل صنع أولاً بين النـاس في الأحياء والحارات والأزقة، في الأسواق والحرف والتجـارة والأعمـال، فـي العـادات والتقاليد، تلك هي الأطر التي صنعت عيشنا الواحد، وحصنته على مدى الأيام وحمتـه مـن جنون متطرف، أو من إنحرافات فكرية أو سياسية آنية أو ظرفية تنمو على ضـفاف الحقـد والكراهية هنا أو هناك.

لسنا ندعي أن طرابلس جنّة من جنّات العيش الواحد، اليوم أو بـالأمس، إلا أننـا نـدعي ونفخر إن هذه المدينة بأكثريتها السنية حافظت على مر تاريخها على ثقافة أساسها الاعتـدال والانفتاح والعيش الواحد، ولن يشوه تاريخها إدعاء باطل من هنا أو ممارسات ظرفية تسببت بها الحرب المجنونة في مراحل معينة.

لقد قدمنا في الكتاب الضخم "طرابلس وتحديات العيش الواحد" من خلال الوثـائق والـسير والتواريخ بالاشتراك مع خمسة عشر باحثاً من أفضل البـاحثين مجموعـة مـن الدراسـات الموثقة، تجعلنا في المركز الثقافي للحوار والدراسات نفخر بهذا الانجاز الذي يصحح الكثيـر من المفاهيم المغلوطة والشائعة عن المدينة وتاريخها استناداً إلى وثائق وليس إلى تحلـيلات، إلى شهادات وليس إلى آراء ووجهات نظر.

على خلفية هذه الصورة، واستناداً على هذه المرجعية الثقافية الإسلامية لأهل الـسنة فـي لبنان يمكن تحليل وفهم أبعاد الكثير من النقاشات التي تجـري فـي الكـواليس حـول هـذا الموضوع. فثمة من يجادل ان تحول "السنة" إلى طائفة في لبنان كما "البقية" مـن الطوائـف يحولهم إلى فريق ويضعهم على خط المواجهة مع الآخرين ويحجـم مـشروعهم التوحيـدي، الأمر الذي يتناقض ودورهم "المرجعي" الذي يفترض أن يكون استيعابياً وتسامحياً مع الجميع. قد لا يجد المتتبع خلافات عميقة بين القيادات السنية الأساسية في تحليل هذه المسألة، إلا فـي

حدود الدور "الاستيعابي والتسامحي" المطلوب على المستوى السياسي وعلى المستوى الحقوقي والدستوري للسنة في لبنان، وبالتالي مقدار وحجم التنازلات المطلوبة والمقبولة للحفاظ على هذا الدور؟؟ وهو الأمر الملتبس حتى الآن، ومصدر الالتباس هو الخطاب السياسي، والذي ترتفع وتيرته تبعاً لحالة التعبئة والاحتقان والاتهامات الاستفزازية المتبادلة والمتعلقة بالإنقسام التناحري القائم حول المحكمة الدولية اليوم، بين فريق يرفض مسبقاً أن تتهم المحكمة أي فرد منه ويشككك بحياديتها، وفريق آخر يطالب العدالة ويقبل بها ويرفض الحصانة لأية فئة تحت سقفها.

والواقع اليوم وكما بالأمس الخطاب السياسي في لبنان متطيف ومتمذهب، ولا ذنب للسنّة بذلك، بل ربما يمكن القول إنهم ضحية هذا الخطاب قبل غيرهم، وهم أصحاب المصلحة قبل غيرهم في بناء خطاب وطني ديموقراطي حديث يلتزم بالعروبة الحضارية، لذلك هم دائماً أقرب إلى مشروع الدولة منهم إلى مشروع الدويلات والميليشيات، وهم أكثر من قدموا الشهداء في سبيل هذا الهدف، وليس في هذا أي عيب في الوقت الذي تتفكك فيه أوصال الدولة والمجتمع، وتكاد معه تتحول الدولة إلى غنيمة والطائفة إلى قبيلة والشعب إلى رعية.